• الفصل الخامس •

□□ المسائل القائمة بين مصر والحبشة في العصور الوسطى

يمكن حصر المسائل التى دارت حولها العلاقات بين مصر الإسلامية والحبشة فى العصور الوسطى فيما يلى:

الكنيسة الحبشية وبطركية الإسكندرية

ترجع الصلة الدينية بين الكنيسة الحبشية والقبطية إلى أصول المسيحية الأولى؛ إذ كان لمصر الفضل فى نشر المسيحية ببلاد الحبشة. ومنذ أن أكَّد مجمع نيقيه تبعية كنيسة اكسيوم الحبشية لبطركية الإسكندرية، أخذ يفد إلى تلك البلاد مطارنة مصريون[1]، ثم استقبلت الحبشة مطارنة من القسطنطينية فى الفترة ما بين ٥٢٧ و٥٦٥م. ولقى مذهب الطبيعة الواحدة بالحبشة عنتا واضطهادًا من أباطرة الدولة البيزنطية ومطارنتها، وقد أدى دخول مصر فى نطاق الدولة العربية إلى عودة الصلات الدينية بين مصر والحبشة، فمنذ أن أطلق عمرو بن العاص سراح البطرك بنيامين رجحت كفة اليعاقبة فى مصر. وأخبار ترسيم المطارنة من مصر لبلاد الحبشة متواترة فى عهد الولاة والدولة الطولونية والفاطمية حين انقطعت العلاقات الدينية مع الدولة البيزنطية[2].

وقد جرت التقاليد المتبعة فى ترسيم المطران للحبشة فى تلك العصور الأولى بأن يرسل ملكها رسالتين: إحداهما إلى صاحب الأمر فى مصر، والأخرى إلى بطرك الإسكندرية، ويصحب ذلك مبلغ ضخم من المال يقدمه الأحباش إلى البطرك، فضلا عن هدية من العاج والمسك والرقيق للوالى[3]، ثم بعد أن يستأذن البطرك السلطان فى تلك المهمة.. يقوم برسامة أحد الرهبان الممتازين مطرانًا للحبشة.

ولابد من التساؤل هنا عن الدور الذى يقوم به المطران فى بلاد الحبشة. والواقع أن اهتمام ملوك الحبشة بمسألة المطران المصرى لم يكن عبثًا، ففضلا عن إشرافه الدينى على أمور الكنيسة.. فإنه كان تكأة الملك فى حكمه، يقوم برسوم التتويج ويمسح بيده على رأسه ليباركه[٤]، ويخرج معه فى حروبه ليمنح الجيش تباريك النصر[٥]، وهو الذى يسم القوانين الملكية بطابع دينى، ويتولى إصدار قرار الحرمان الدينى والسياسى على من يحل به سخط النجاشى[٦]، ويضاف إلى ذلك أن المطران المصرى بالحبشة هو المهيمن على أملاك الكنيسة وأموالها. ومن الحوادث التى تؤيد الأهمية السياسية للمطران أنه عندما استعادت أسرة زاجوى Zagoue الملك بعد أن قضت على أسرة سليمان Selomon، لجأ أول ملوكها إلى مصر يطلب ترسيم مطران لبلاده، يستعين به على إكساب ملكه طابعًا من الاستقرار السياسى والدينى. وقد اتخذ من ملك النوبة جورج واسطة فى هذا الموضوع، وتقبل بطرك الإسكندرية فلتساؤس هذه الوساطة وعين دانيال مطرانًا لبلاد الحبشة[٧].

كذلك كانت للبطرك نفسه مكانة رفيعة سامية فى نفوس الأحباش، وتؤيد القرائن التاريخية تلك المكانة تأييدًا قويًا. ولا أدل على ذلك مما أورده القلقشندى؛ إذ قال «ولأوامر البطريك عنده (يقصد ملك الحبشة) ما لشريعته من الحرمة، وإذا كتب إليه كتابًا فأتى ذلك الكتاب إلى أول مملكته، خرج عميد تلك الأرض فحمل الكتاب على رأس علم، ولايزال يحطه بيده حتى يخرجه من أرضه، وأرباب الدولة فى تلك الأرض كالقسوس والشمامسة حوله مشاة بالأدخنة، فإذا خرجوا من حد أرضهم تلقاهم من يليهم، أبدًا كذلك فى كل أرض بعد أرض، حتى يصلوا إلى أمحرا، فيخرج صاحبها بنفسه ويفعل مثل ذلك الفعل الأول. إلا أن المطران هو الذى يحمل الكتاب لعظمته لا لتأبى الملك، ثم لا يتصرف الملك فى أمر ولا نهى، ولا قليل ولا كثير حتى ينادى للكتاب، ويجمع له يوم الأحد فى الكنيسة ويقرأ، والملك واقف ثم لا يجلس مجلسه حتى ينفذ ما أمره به»[٨].

وحدث أيضًا فى عصر دولة المماليك الأولى أن بعث أحد التجار عميلا له فى تجارة إلى بلاد الحبشة، فلما مات الرجل هناك تحرَّى التاجر فى الوسيلة التى يسترد بها أمواله ومتاجره من تلك الجهات النائية، فشكا حاله إلى السلطان الذى رجا البطرك للتوسط فى هذا الصدد لدى ملك الحبشة، وأخيرًا تمكن التاجر فعلا من استرداد متاجره[٩].

وقد جرت العادة أن يكتب بطاركة الإسكندرية إلى ملك الحبشة مرتين كل عام، إلا أن الحاكم بأمر الله حال دون استمرار ذلك التقليد، على أثر نقمته المعروفة على أقباط مصر[١٠]. والواقع أن سلاطين مصر كانوا يستريبون من قيام صلات مباشرة بين البطاركة وملوك الحبشة، ويتضح ذلك مما أورده السخاوى من أنه «فى العشرين من شعبان ٨٥٢ هـ (يولية ١٤٤٨م)، عقد مجلس بين يدى السلطان بالقضاة الأربعة وغيرهم. وكان السلطان غضب عليه (بطرك النصارى) وحبسه فى المقشرة، وأخذ منه شيئا كثيرًا فأمر بكتابة شهادة عليه أنه لا يكتب إلى ملك الحبشة بنفسه، ولا بوكيله، لا ظاهرًا ولا باطنًا، ولا يولى أحدًا فى بلاد الحبشة لا قسيسًا ولا أعلى منه ولا دونه، إلا بإذن من السلطان ووقوفه على كتابته، وأنه متى خالف ذلك انتقض عهده وضربت عنقه. وحكم قاضى المالكية بذلك ونفذه بقية القضاة، ثم قرئ الإشهاد بين يدى السلطان والجماعة، ورسم بكتابة خمس نسخ منه ليكون عنده وعند كل من القضاة الأربعة نسخة[١١].

وذكر العمرى ـ قبل تلك الحادثة بما يزيد عن قرن ـ أن من بين النصائح التى توجه من قبل السلطان إلى البطرك أن يتوقى ما يأتيه سرًا من تلقاء الحبشة حتى إذا قدر فلا يشم أنفاس الجنوب، ولا يحفل بسؤدد السودان[١٢]. بيد أن البطرك غبريال الخامس (١٤٠٩ ـ ١٤٢٧ م) من بين بطاركة الإسكندرية لم يكن ذا هيبة ومكانة فى الحبشة؛ إذ طعن الحطى فى أهليته لمنصب البطركية لأنه من سلك الكتاب، ولذلك قطع ما اعتاد أن يبعث به إلى البطركية من الأموال، ومما زاد فى قلة اكتراث الأحباش به إهانة السلطان له[١٣].

وإذا كان ولى الأمر فى مصر يرتاب من الاتصال المباشر بين البطرك وملك الحبشة.. فإن البطرك نفسه كان شديد الحرص على ضمان تبعية الكنيسة الحبشية له، ويؤيد ذلك ما حدث فى عهد البطرك غبريال (١١٢٢ ـ ١١٣٦ م) حين طلب منه ملك الحبشة زيادة عدد الأساقفة فى بلاد النوبة والحبشة من العدد المقرر قديمًا وهو سبعة، فامتنع البطرك عن قبول تلك الرغبة، رغم تدخل الخليفة الفاطمى، وحجته أنه إذا زاد عدد أساقفة الحبشة.. ربما أقاموا لهم بطركًا، وخرجوا عن طاعة الكنيسة المرقسية بالإسكندرية[١٤].

وظل المطارنة المصريون قوامين على أمور الكنيسة والدين ببلاد الحبشة، وكثيرًا ما حاولوا معالجة المثالب التى تظهر فى المجتمع الحبشى كمسألة تعدد الزوجات، فقد بذل المطران ساويرس فى محاربة تلك العادة جهدًا مشكورًا؛ تنفيذًا لأوامر البطرك كيرلس (١٢٣٥ ـ ١٢٥٠ م)[١٥]. كذلك يعزو بدج Budge بعض أنواع الطقوس والمشاعر الدينية فى الحبشة إلى تأثير المطارنة المصريين؛ فاستعمال الأجراس وتعليق بيض النعام بالكنائس الحبشية فى القرن الثالث عشر هو محاكاة لما عرف فى الكنائس القبطية بمصر[١٦]. كما يظهر أيضًا طابع الكنائس القبطية فى كثير من كنائس الحبشة، التى عملت فى بنائها عقول المهندسين وأيدى الصناع، الذين أتوا من مصر إلى تلك البلاد[١٧].

بيد أن تبعية الكنيسة الحبشية للكنيسة المرقسية، كانت من الأمور التى تؤدى إلى بعض الخلل أحيانًا فى الشئون الدينية بالحبشة، ومنها أن كرسى المطرانية يظل شاغرًا حتى مجىء المطران من مصر، وقد يتلكأ السلطان أحيانًا فى الموافقة على بعث مطران إلى تلك الجهات، وهذا فضلا عن طول الطريق ومشقة السفر. كذلك عرف بعض المطارنة بالجشع وسوء السيرة؛ مما أدى إلى احتكاكهم بالأحباش[١٨]. وقد نتج عن ذلك أن استقبلت الحبشة ـ فى بعض الفترات ـ أساقفة من الكاثوليك الذين عملوا على نشر مذهبهم فى تلك البلاد، كما اشتركت الحبشة فى مؤتمر فلورنسا Florence (١٤٣٨ ـ ١٤٣٩م) الذى عقده البابا يوجين الرابع Eugenes iv لتوحيد الكنائس المسيحية كلها، وقد اشترك فى هذا

المؤتمر Nicomedus نيكوميدس رئيس الدير الحبشى ببيت المقدس. كذلك يقال إن الملك زرعة يعقوب (١٤٣٤ ـ ١٤٤٦ م)، قد بعث رسولا من قِبَله لحضور ذلك المؤتمر، الذى أصدر قراره ضد اليعاقبة decretum pro jacobitis، وذهب أسقف كاثوليكى من فلورنسا اسمه فرانسيسكو دى برانكا Francesco de Branca لتنفيذ قرارات المؤتمر ببلاد الحبشة، ولكنه فشل فى مهمته، كما تداعى مشروع التوحيد من أساسه، وعادت الحبشة إلى تبعيتها للكنيسة اليعقوبية فى مصر[١٨]. ويعزى ذلك الفشل إلى ضعف الأساقفة الكاثوليك، وقلة عددهم، وجهلهم بطبيعة المهمة التى وكلت إليهم[١٩]. ومهما قيل عن اتجاه الحبشة ـ أحيانًا ـ إلى الكنيسة الرومانية.. إلا أن الأحباش ظلوا طيلة العصور الوسطى متعصبين للمذهب اليعقوبى، فذكر المقريزى أن بعض من أراد الدخول إلى بلاد الحبشة من الكاثوليك قد أخفى حقيقة مذهبه، وادعى أنه يعقوبى خوفًا من القتل[٢٠].

المراسلة بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى

وافق قيام الدولة المملوكية الأولى بمصر وجود تنافس بين أسرتى زاجوى وسليمان Zagoue, Selomon على العرش فى بلاد الحبشة، وتدخل تكلا هايمانوت Takla Haimanot رئيس دير دبرا لبنان Debra Lebanos فى هذا الخصام، وانتهت وساطته بالاتفاق على أن يصبح يقونو أملاق من بيت سليمان Selomon ملكًا عامًا على بلاد الحبشة وعاصمته شوا، وأن ينصب نايلكوتو لعاب Nealkouto le' ab من أسرة زاجوى Zagoue حاكمًا على منطقة لاستا فقط Lasta [٢١]، وقد أراد الحطى يقونو أملاق ـ تدعيما لنفوذه، وتمكينًا لعوامل الاستقرار الدينى والسياسى ببلاده ـ أن يبعث فى طلب مطران من مصر، فكتب إلى السلطان المملوكى بيبرس كتابًا سنة ٦٧٢ هـ ـ ١٢٧٣ م[٢٢]، يفهم منه أنه قبيل ذلك التاريخ، كان بيبرس قد بعث إلى الحبشة سفارة، لم تتمكن من العودة إلى مصر سريعًا؛ إذ عوقتها الظروف الداخلية والحرب الأهلية القائمة؛ إذ ذاك فى بلاد الحبشة. وقد اعتذر الحطى[٢٣] عن ذلك بقوله: «وما أخرت الرسل إلى الأبواب إلا أنى كنت فى بيكار»[٢٤]. ويرجح أن السفارة لم تتمكن من مقابلة

الحطى فى عاصمة شوا، وأن سبب تعويقها هو اجتيازها لمناطق قد خربتها الحروب[٢٥]. غير أن تعويق السفارة أثار حنق بيبرس، أما صميم الموضوع الذى تحدثت عنه رسالة الحطى[٢٦]. . فهو أن يصدر السلطان أمره إلى البطرك واسمه غبريال الثالث[٢٧] (١٢٦٢ ـ ١٢٦٨م) بأن يعين للحبشة «مطرانا رجلا جيداً عالمًا لا يحب ذهبًا ولا فضة»، وهذه الإشارة من ملك الحبشة دليل على أن بعض المطارنة قد اتصفوا بالجشع المادى كما سلف القول. ولم يبعث الحطى برسالته إلى بيبرس مباشرة؛ إذ أدرك ما أثاره تأخير رسل السلطان قبلا من حفيظة فى نفسه. ولذلك «قصد الملوك فى إيصال كتابه إلى السلطان» فقصد سلطان اليمن الملك المظفر ليكون واسطة فى هذا المطلب، وملأ الرسالة بآيات الزلفى والتقرب، فمن قوله عن عساكره «وكلهم غلمانك وتحت أوامرك وهذه (كذا) الخلق كلهم يقولون آمين بطول بقاء عمر سلطاننا مالك مصر، ويهلك الله عدوه»[٢٨].

ولم يكترث بيبرس بما طلبه الحطى، بل جاء فى رده ما يشعر بأن ملك الحبشة قد خالف التقاليد المتبعة فى طلب المطران؛ إذ يقول «فأما طلب المطران فلم يحضر من جهة الملك رسول حتى كنا نعرف الغرض المطلوب، وإنما كتاب مولانا السلطان الملك المظفر، ورد مضمونه أنه وصل من جهته كتاب وقاصد، وأنه أقام عنده حتى يسير إليه الجواب» والمخالفة التى يشكو منها، ولم يكترث بها بيبرس فيما يظهر، هى عدم مجىء رسول ملك الحبشة إلى الحضرة السلطانية ومعه الهدايا والرقيق[٢٩]. وقد جاء فى المخطوط الخاص بسيرة قلاوون نفس ذلك المعنى من أنه لا يتيسر اختيار مطران تتوافر فيه الشروط التى يتطلبها الحطى، إلا فى حضرة رسول الملك نفسه.

على أن ذلك الرد الذى بعث به بيبرس لم يشتمل على رفض صريح لإرسال المطران، بل يذكر المقريزى أن ملك الحبشة قد أجيب إلى طلبه[٣٠]. ولعل ما أعقب ذلك من حوادث ينقض رواية المقريزى؛ إذ أورد كولبو Coulbeaux أنه على أثر فشل يقونو أملاق فى تلك المحاولة لدى بيبرس اتجه إلى سوريا،

واستقبل ببلاده فعلا مطرانًا سوريا، يدعى أيوب Youb، كما وصلت إلى عاصمة الحبشة طائفة من الدومينكان الكاثوليك. على أن السبب الحقيقى الذى حدا ببيبرس إلى عدم الإجابة عن مطلب ملك الحبشة لابد وأن يكون أخطر وأعمق من مجرد مخالفة للتقاليد المرعية.

ويمكن أن يعزى ذلك - من قبيل الاستنتاج - إلى رغبة بيبرس فى توثيق عُرَا المحالفة، التى عقدها مع امبراطور الدولة البيزنطية ميشيل الثامن Michael Vlll Palaelogus، الذى أعاد الدولة البيزنطية إلى القسطنطينية. فقد أرسل بيبرس له طريف الهدايا، وسعى الإمبراطور من ناحيته إلى إنهاض الكنيسة البيزنطية، التى لم يكن لها بطرك فى القاهرة إذ ذاك؛ فبعث إلى بيبرس بطلب تعيين بطرك لها، فاختار السلطان الرشيد الكحال وسيره إلى الإمبراطور الذى وافق على اختياره وأعاده إلى مصر(٣٢). ولذلك.. يمكن القول إن عدم استجابة بيبرس إلى الحطى، هى من قبيل ترجيح كفة المذهب الرومانى وإمبراطور الدولة البيزنطية، على كفة اليعاقبة وملك الحبشة.

بيد أن العلاقات التى قامت بين قلاوون وملك الحبشة يجبا تسيون Yagba Tsion (ركن صهيون)، تلقى ضوءا نهائيا على نتيجة التراسل بين بيبرس والملك يقونو أملاق، فقد ذكر كاترمير - نقلا عن مخطوطة حياة قلاوون - أنه فى رمضان ٦٨٩ هـ (سبتمبر ١٢٩٠ م)، تسلم السلطان قلاوون رسالة ملك الحبشة، وجاء فيها أن سياسته تغاير سياسة والده تمامًا، فإنه يحمى المسلمين فى جميع أنحاء مملكته، وإنه ناقم أشد النقمة على المطران السورى الذى جاء إلى بلاده، وشنع على ملكه، واتهمه بإيذائه للمسلمين، ونسب إليه ما آلت إليه الحبشة من اضطراب روحى. ثم وعد السلطان بإرساله الهدايا والرقيق فى أقرب فرصة ممكنة، وألح فى رجائه بإنفاذ المطران الذى سيصبح قدومه مبعثًا للطمأنينة، وحافزًا على إرضاء كل من المسلمين والمسيحيين.

ثم وصلت إلى قلاوون - بعد ذلك - رسالة صاحب اليمن، منبئة بوصول سفارة حبشية إلى بلاده، وأنها فى انتظار وصول المطران لمرافقته إلى الحبشة. كما وصل

إلى مصر أيضًا مبعوث من قبل وزير الحبشة داود بن عاز David ben Azz يحمل إلى السلطان كتابًا باللغة العربية، يشكو فيه من سوء تصرفات المطران السورى، ويعد بإرسال الهدايا بمجرد وصول المطران الجديد. كما وجه الوزير رسالة أخرى باللغة الحبشية إلى البطرك يوحنا السابع، يلتمس فيها المبادرة بترسيم مطران عالم فاضل يبصره بشئون دينه، وبما ينبغى أن ينهجه من سياسة دنيوية. كما بث إليه شكواه مما أثاره المطران السورى، وغيره من الأساقفة السوريين من ضغينة وحقد فى النفوس. وأشار إلى أن الأحباش قد أصبحوا ينظرون إليهم، نظرتهم إلى غرباء، اغتصبوا المناصب الكنيسة التى كان يرعاها البطرك من قبل، وأن استمرار مثل تلك الحال معناه الهلاك المحقق(٣٣).

وقد استجاب السلطان قلاوون أخيرًا لمطلب ملك الحبشة، فسمح بترسيم المطران وسفره، فلما وصل إلى العاصمة الحبشية طورد المطران السورى وغيره من «الغرباء» حتى حدود إرتريا، واضطهد الدومنيكان، وصودرت أملاكهم(٣٤). غير أنه لم تكن تلك الفترة هى الوحيدة من نوعها من استقبال الحبشة لمطران كاثوليكى، بل إنه فى سنة ١٤٨١ م قصدت فلسطين سفارة حبشية؛ حيث اتصلت بالرهبان الفرنسكان، وطلبت منهم ترسيم مطران كاثوليكى؛ ليقوم بتتويج الملك الجديد الكسندر، الذى خلف أباه بعيدا مريام Ba' eda Maryam، فأشاروا عليه بالتوجه إلى البابا، إلا أن البابا لم يقدم على تنفيذ تلك الرغبة؛ خشية أن يسىء إلى السلطان المملوكى(٣٥).

وكان منشأ العلاقة بين الحبشة والديانة الكاثوليكية بمدينة بيت المقدس؛ حيث كانت للأحباش جالية مقيمة قرب كنيسة القيامة، وكانت تلك الجالية مهبط الحجاج الأحباش كل عام(٣٦). وكثيرًا ما طلب ملوك الحبشة من سلاطين مصر السماح للحجاج الأحباش بالمرور عبر الأراضى المصرية، وتأدية شعائر الحج دون ضرائب أو مغارم. وقد ذكر القاريز Alvarez أنه شاهد قافلة من قوافل الحجاج الأحباش، تبلغ زهاء ثلثمائة، يسلكون الطريق البرى على ساحل البحر الأحمر إلى الأرض المقدسة. كما ذكر أنهم يخشون طريق البحر؛ لما فيه من المخاطر،

سواء من ناحية العريان أو من غوائل البحر نفسه، وكان لهم بمصر نزل خاص فى كنيـــتى بربارة ودميانة بمصر العتيقة.

حج الأحباش إلى بيت المقدس

ولم تعد رسائل ملوك الحبشة لسلاطين مصر أن تكون تذكيراً بعهد تقليدى قديم، إذ المعروف ـ منذ استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس سنة ١١٨٧ م ـ أن السلطان تعهد بألا يستدفع الحجاج المـــيحيين جزية، مقابل زيارتهم للأماكن المقدسة، على أن بعض سلاطين المماليك قد عمدوا إلى فرض كلف مالية على الحجاج، يقوم بجبايتها منهم مباشرو الولايات بالشام إلى جانب الخازندار. ومن أمثلة ذلك أن قاصد ملك الحبشة ـ ومعه طائفة ـ ممن يقصدون الحج من الأحباش ـ أتوا إلى القدس فى ١٨ من صفر سنة ٨٨٦ هـ (٨ أبريل سنة ١٤٨١م)؛ للاحتفال بسبت النور وزيارة كنيسة القيامة. وحاول نائب دمشق إقامة العراقيل فى طريقهم، فلما أبرز له الحبشى المرسوم السلطانى الشريف بالسماح لهم بالزيارة أَذِنَ لهم دون «كلفة ولا بدل»[٣٨]. وقد عثر بأحد أبواب كنيـــة القيامة على نص من عهد السلطان الغورى سنة ٩١٩ هـ ـ ١٥١٣ م، جاء فيه ما يأتى «المرسوم بالأمر الشريف العالى، المولوى، السلطانى، الملكى، الأشرفى، السيفى، أعلاه الله تعالى وشرفه، وأنفذه وصرفه، ألا يكرهوا جماعة الرهبان النصارى والرهبانيات (كذا)، الملكانيين واليعاقبة، بموجب، ولا بخفر[٣٩]، ولا يظلم عند دخولهم قيامة القدس الشريف أسوة برهبان الكرخ والجيوش، ولا عند دخولهم ميناء يافا، ولا عند خروجهم من يافا، ولا فى مدينة غزة، ولا فى رملة واللد، الوارد من الرهبان والرهبانيات من المذكورين فى البر والبحر، وكل ناحية لزيارة بيت المقدس مستمر حكم ذلك من تقادم السنين من غير إحداث حادث، ولا تجديد مظلمة، ومنع من يتعرض إليهم بسبب ذلك أو لغيرهم[٤٠] (كذا) وهى تربتهم التى يدفنون بها، ولا لنوابهم»[٤١].

ومن ذلك النص.. يتضح أن الرهبان والحجاج الأحباش قد استفادوا من

ذلك المرسوم، فهم المعنيون بالإعفاء من الأعباء المالية فى طريق غزة ورملة واللد، أثناء مرورهم عن ذلك الطريق من مصر. ومع هذا.. فقد عمد بعض سلاطين المماليك إلى مضايقة الحجاج المسيحيين لأسباب طارئة، ومن أمثلة ذلك السلطان برسباى الذى أغلق كنيسة القيامة فى أغسطس سنة ١٤٢٣؛ بسبب القرصنة التى اقترفها القطلانيون فى البحر الأبيض تلك السنة، مما أدى إلى تدخل ملك الحبشة فى ذلك الصدد(٤٢).

ويجمل بنا فى هذا المقام أن نذكر ما جاء فى بدائع الزهور، بصدد استقبال السلطان الغورى للوفد الحبشى، الذى أتى ليستأذن السلطان فى الذهاب إلى بيت المقدس، وذلك فى محرم سنة ٩٢٢ هـ ـ ١٥١٦ م، قال ابن إياس «فلما حضر القاصد عمل له السلطان موكبا بالحوش من غير شاش ولا قماش. واصطفت الأمراء عن يمينه وشماله، كل واحد منهم فى منزلته. ثم طلع القاصد من الصليبة، وبصحبته الأمير ازدمر المهمندار وجماعة من الرؤوس والنوب، ومن المماليك السلطانية وغير ذلك. وكان القاصد معه من أعيان أمراء الحبشة نحو خمسة أفقار، والبقية كلهم ليسوا من الأعيان، وفيهم من هو عريان مكشوف الرأس وعلى رأسه شوشة شعر، وفيهم من فى أذنه حلق ذهب قدر القرصة، وفى أيديهم أساور ذهب. وكان مجموع هؤلاء الحبشة الذين حضروا إلى مصر ستمائة إنسان، وأوساطهم مشدودة بحوائص كهيئة الزنانير. وكان معهم لما شقوا الصليبة طبلين (كذا) على جمل يضربون عليهما. واصطفت جميع النصارى الذين فى مصر للفرجة عليهم. وكان بصحبتهم البطرك وعليه برنس حرير أزرق، وكانت أعيانهم راكبة على خيول والبقية مشاة، والبطرك ماش قدامهم. فلما وصل هذا القاصد إلى الحوش قبل الأرض، فلما وصل إلى أوائل البساط قبل الأرض هو ومن معه من أعيان الحبشة. ولم يدخل معه قدام السلطان غير سبعة أنفس والبقية لم يدخلوا، فلما قربوا من السلطان قبلوا الأرض بين يديه ثالث مرة، ثم قدموا كتاب ملك الحبشة، قيل إنه فى ضمن غلاف من الفضة، وقيل من الذهب. فلما قرئ على السلطان وجد فيه ألفاظًا حسنة ونعتًا عظيمًا للسلطان،

وأن قصادنا أتوا ليزوروا القيامة التى بالقدس فلا تمنعوهم من ذلك. ورسم لهم السلطان أن يقيموا فى ميدان المهارة، الذى بالقرب من قناطر السباع إلى أن يسافروا. وأرسل لهم خيامًا ضربت لهم من داخل الميدان، ووكل بباب الميدان جماعة من المماليك، يمنعون من يدخل إليهم من العوام، خوفًا عليهم من العوام أن يرجموهم. فكان لهم يوم مشهود، فإن قصاد ملوك الحبشة لا يدخلون إلى مصر إلا قليلا[٤٣]، لأن بلادهم بعيدة حتى قيل إن هذا القاصد له تسعة أشهر»[٤٤].

ومما يوجب الالتفات فى هذا الوصف موقف الشعب المصرى من أمثال تلك السفارات الأجنبية، التى درج الناس على أن ينظروا إليها نظرة ريبة واستخفاف، فكثيرًا ما تعدوا على السفراء الأجانب بمختلف ألوان الإيذاء بجذبهم من فوق ظهور مراكبهم، أو رجمهم بالحجارة، أو قذفهم بالتراب وضربهم بالعصى، أو على الأقل بالتجمهر حولهم ومقابلتهم بأصوات السخرية والتهكم. ومثل تلك الظاهرة ليست غريبة ولا فريدة فى مصر فى تلك العصور، فقد لقى السفير البرغندى كورناى دى سكبر Corneille de Scppere عند زيارته لسلطان آل عثمان سنة ١٥٣٤ م، صنوفًا من التهكم المر والتهديد المخيف من جند الانكشارية[٤٥]. على أن تلك الظاهرة لم تنشأ عن مجرد حب السخرية بالغرباء، أو من شدة كره القاهريين للأجانب بل يظهر أن بعض المظاهر الدينية، التى رافقت تلك الوفود كانت تثير الناس إلى مثل ما أوقعوه بالأحباش سنة ١٥١٦ م، وأشار قيت إلى أن أولئك الأحباش الذين قصدوا زيارة الأماكن المقدسة فى عهد الغورى، قد أثاروا سخط المسلمين هناك بسبب رفعهم الصليب علانية؛ مما أدى إلى الاصطدام بين الفريقين[٤٦].

وقد ذكر ابن إياس أيضًا أن قاصد الحبشة أرسل عقب ذلك الاستقبال الهدية المعتادة إلى السلطان، فلم ترق فى نظره؛ إذ أنها أقل شأنًا مما كان يتوقع، بل أقل مما أرسله ملوك الحبشة السابقون إلى كل من برسباى وجقمق وقايتباى. ويمكن أن تعزى تلك الظاهرة إلى تضاؤل ملك الحطى، وانكماش سلطانه ونفوذه السياسى فى ذلك الوقت[٤٧]. وليس من شك فى أن لهذه الهدايا قيمتها

الدبلوماتية فوق قيمتها المادية، ولذلك كان نصيب قاصد الحبشة التوبيخ والتعنيف. ويمكن مقارنة ذلك بما حدث فى عهد الناصر محمد بن قلاوون، عندما ألفى هدية الملك هزبر الدين داود صاحب اليمن سنة ٧٠٥ هـ ، أقل من المعتاد «فكتب بالإنكار عليه والتهديد»(٤٨).

وكان مقام الرهبان والحجاج الأحباش فى بيت المقدس بدير عرف باسمهم. وليس فى المراجع المتداولة تاريخ لبدء قيام هذا الدير، إنما الراجح أنه ظهر إبان الحروب الصليبية، وأن صلاح الدين قد شمله بعطفه وسماحته، عندما دخل بيت المقدس سنة ١١٨٧م(٤٩). وقد أطلق عليه اسم «دار السلطان»، وله رئيس يعرف باسم مهمار Mahmer يعينه ملك الحبشة، وليس ثمة صلة مباشرة بينه وبين سلطان مصر(٥٠). وقد جرت عادة ملوك الحبشة بإرسال الهدايا والهبات إلى رهبان ذلك الدير، كذلك بعث ملك الحبشة يجبا سيان Yagbea Syen (١٢٨٥ ـ ١٢٩٤م) بكتاب إلى ذلك الدير، يطلب الدعاء والعمل على إقناع البطرك فى مصر بضرورة المبادرة إلى إرسال مطران إلى الحبشة(٥١). ومن المعلوم أيضًا أن رهبان ذلك الدير قد ساهموا فى مؤتمر فلورنسا، الذى عقده البابا إذ ذاك؛ لتوحيد المذاهب المسيحية كما سبقت الإشارة.

وكان لوجود هذا الدير الحبشى ببيت المقدس أهمية من حيث علاقة الحبشة بالحروب الصليبية؛ لأنه كان الوسيلة لإيصال أنباء الصليبيين تباعًا إلى الأحباش. فلما انتهت الإمارات الصليبية فى الشام بوقوع عكا آخر معاقلها فى يد السلطان خليل بن قلاوون فى مايو ١٢٩١م، وعندما أخذ كثير من قادة الفكر والدعاة السياسيين والرؤساء الدينيين فى التفكير فى العوامل التى أحدثت تلك الخاتمة، وفيما يجب اتباعه من الوسائل لاسترجاع الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين.. كان هذا الدير أيضًا وسيلة لإيصال تلك الآراء إلى بلاد الحبشة.

الحبشة وفكرة الحروب الصليبية

لقد تردد على الشرق الأدنى بعض الرحالة الأوروبيين؛ لدرس أحواله وتقديم

تقريرات عنه إلى دولهم، فقام فيليب دى ميزيير Philippe de Mezieres وزير بطرس الأول ملك قبرص، يدعو لفكرة إحياء الحروب الصليبية عام ١٣٦٩م. وجاء جلبرت لانى Guilbert Lanney موفدا من قِبَلِ فيليب الطيب دوق برغنديا وهنرى الخامس ملك إنجلترا فى سنة ١٤٢١م، كذلك أوفد ملك فرنسا شارل السابع أسقف مدينة شالون Chalon، واسمه جان چرمان Gean Germain، لدراسة أحوال الشرق تمهيدًا للقيام بحرب صليبية، فكتب رسالته (تقرير عن رحلة ما وراء البحر) Discours du Voyage d'ourte mer، اقترح فيها قيام حلف من القوى المسيحية فى الشرق، وهى الدولة البيزنطية وأرمنيا ومملكة القديس يوحنا(٥٣).

والواقع أن تلك التقريرات وأمثالها لم تؤد إلى شىء ذى غناء؛ بسبب التحول الكبير، الذى طرأ على فكرة الحروب الصليبية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، فقد ظهر من بين أقوال الدعاة مثل جور Gower ـ فى رسالته Confessie Amantis ـ ميل إلى العزوف عن الالتجاء إلى الحرب، أو العنف كوسيلة لتنفيذ الأغراض الصليبية، فلا يتجيز جور Gower البتة قتل مسلم واحد فى سبيل استخلاص بيت المقدس(٥٤). وقد زاد فى فتور الفكرة وخمودها انصراف الأمم الأوروبية الناشئة إلى كيانها السياسى، هذا فضلا عما انتاب البابوية من مشاكل دينية وسياسية مختلفة، صرفتها عن التفكير جديا فى مسألة الحروب الصليبية(٥٥).

بيد أنه رغم ما انتهت إليه فكرة الحروب الصليبية من مآل فى أوروبا.. فإنها أخذت تسعى للبحث عن مواطن، تستطيع أن تعوض بها ما انسلخ منها فى فلسطين والشام. وبرزت ـ من بين ما برز عن تلك الرغبة ـ فكرة الوصول إلى الإمبراطورية المسيحية التى يحكمها القديس يوحنا. وليس لهذه الشخصية وجود حقيقى، إنما هى أسطورة شاعت بأوروبا فى العصور الوسطى، حتى اعتنقها أهل أيسلندا فى الشمال. وملخصها أن ثمة إمبراطورية مسيحية، مترامية الأطراف، تمتد فى بلاد الهند وإفريقية، يحكمها ملك مسيحى ليس على المذهب الكاثوليكى. وقد

اضطربت الآراء بصدد شخصية القديس يوحنا. . فمن قائل إنه أمير هندى، إلى قائل بأنه من زعماء المغول، إلى ثالث يـزعم أنه ملك على أرمينية والهند[٥٦] Yohannes Peresbyter Rex Armeniae et Indiae، كما ورد ذكره فى يوحنا النقوسى، ورحلة ماركو بولو على أنه ملك بلاد الحبشة، رغم ما بين هذين المرجعين من فارق زمنى واسع. وقد حبكت حول هذه المملكة أخبار طريفة عجيبة، فقالوا إنها مملكة ذات ثراء عريض، وقوة عاتية. وعاصمتها هولنا Hulna التى تقع على ضفة نهر الفردوس، لا يبلغ الإنسان مداها إلا بعد مسيرة أربعة أيام، وقصر الملك بها غاية فى الروعة والبهاء.

وبتلك البلاد اثنان وسبعون ملكًا يأتمرون بأمر الإمبراطور الأعظم القديس يوحنا[٥٨]، ومن بين سكانها أناس عيونهم فى صدورهم، وبها مخلوقات أخرى، تكوينها الجسمانى مزيج من رأس طير وجسم حيوان ومخالب وحش. ثم هى أيضًا موطن العجول التى تعيش على لحوم البشر، والثعابين الضخمة المروعة، ثم هى بعد هذا كله موطن التوابل والذهب والأحجار الكريمة[٥٩]. وقد حلل كولبو Coulbeaux اسم Prêtre Jean فقال إن لفظ Jean أصله بالحبشة Djan Hoi ومعناه Oh Juge. ولما كان ملوك الحبشة يجمعون بين الصفتين الزمنية والدينية. . فإنهم اتخذوا لقب القـيـس Prêtre [٦٠]، وقد قام بنشر فكرة مملكة القديس يوحنا بعض الكتاب، أمثال: Banan Lull, Philippe de Mezier Bucard, Felex Faber

والخلاصة أن هؤلاء الكتاب والدعاة متفقون على ضرورة إيجاد حلف بين مـسيحيى الشرق وأوروبا؛ للإطباق على مصر من الشمال والجنوب؛ للقضاء على المقاومة الإسلامية فى صميمها. وقد سعى البابا وملوك أوروبا فعلاً للوصول إلى مملكة القديس يوحنا المنشودة، وتقاطرت بعثاتهم لهذا الغرض، فقد أرسل البابا نيقولا الثانى Nicolas إلى ملك الحبشة سفارة على رأسهاJean de Monetcervine، ولكن أخبارها قد انطوت فى مجاهل النوبة والسودان. كذلك أرسل البابا يوحنا الثانى والعشرون Jean XXII سنة ١٢١١م سفارة من الدومنيكان إلى تلك البلاد، وقبض على أعضائها فى مصر، وكذلك كان مصير بعثة أخرى من الدومنيكان، أرسلها ملك فرنسا سنة ١٢٣٨[٦١].

ومهما يكن من أمر تلك السفارات.. فإن الحبشة قد استجابت لفكرة الحروب الصليبية فى تلك الحقبة المتأخرة من العصور الوسطى؛ فقد ذكر لابروكيير La Broquiére أنه عند ما بلغت الحبشة أنباء غزو بطرس لوزجنان ملك قبرص لثغر الإسكندرية عام ١٣٦٥م، بادر الحطى ـ ملك الحبشة ـ إلى إعداد جيش لمهاجمة مصر وبيت المقدس، بلغت عدته ثلاثة ملايين، وزحف شمالا لمباغتة الحدود الجنوبية. فلما قاربها علم بارتداد حملة بطرس، فقفل راجعًا بعد أن خسر جيشه زهاء مليونين من رجاله[٦٢]. ومع ما فى الأعداد الخاصة بالجيش والخسائر من مبالغة، ليست بغربية من رحالة العصور الوسطى.. فإنها تنم عن وجود اتفاق بين الحبشة وملك قبرص، بصدد الإطباق على مصر من الشمال والجنوب.

كذلك وضع إسحق الأول ملك الحبشة (١٤١٤ ـ ١٤٢٩م) خططًا واسعة؛ لتنفيذ مشروع صليبى[٦٣]. وصادف أن وصل إلى بلاد الحبشة فى عهده بعض الجراكسة ممن لم تهنأ لهم الإقامة بمصر، ومن بينهم الطنبغا والى قوص الذى اتصل بالحطى؛ فأسند إليه شئون الجيش، وقام بتنظيمه وتدريبه على استعمال السيوف والرماح والزرديات والنفط، بعد أن كان لا يعرف غير استعمال الحراب. كما ضبط له الأمور الإدارية بمملكته كاتب قبطى، اسمه فخر الدولة فنظم له الدووابن وجبى الأموال[٦٤].

وبعد أن تهيأ لإسحق كل ذلك.. بدأ بتنفيذ الشطر الأول من مشروعه الصليبى بشن الغارات المتواصلة على الإمارات الإسلامية فى الحبشة، فنكل بالمسلمين وخرب مساجدهم، وأوقع بهم اضطهادات مروعة. ثم جاءت أخبار استيلاء المماليك على جزيرة قبرص عام ١٤٢٧م، والقبض على ملكها يانوس Janus بمثابة إذكاء لفكرة القيام بحرب صليبية ضد مصر. ومن أجل ذلك.. كتب إسحق الأول إلى ملوك أوروبا فى سنة ١٤٢٨م، يدعوهم إلى النهوض معه لحرب صليبية ضد الدولة المملوكية. وخلاصة خطته القيام بهجوم مزدوج من القوات الأوروبية بحرا ومن الجيش الحبشى برا. وكان رسوله إلى ملوك أوروبا تاجرًا فارسيًا، اسمه على نور الدين التبريزى، كان قد استقر فى بلاد الحبشة حيث ربت فيها تجارته.

وغادر التبريزى بلاد الحبشة إلى مصر ثم إلى أوروبا، دون علم السلطان المملوكى، وهناك اتصل بملوكها الذين وعدوه بالمساعدة. ويقال إنه قد أتم هناك أيضًا صنع الزى الذى يرتديه المحاربون، ثم عاد إلى الإسكندرية فى طريقه إلى الحبشة، ولكن أحد رفاقه وشى به فقبض عليه، وصودر ما معه، وبعث به إلى السلطان فى القاهرة. ورغم الفدية الكبيرة التى وعد بتقديمها فى نظير إطلاق سراحه.. فإنه حوكم وشهر به ثم سمر(٦٥).

وقد يكون ما ورد بصدد سفارة التبريزى مجرد قصة، إنما الثابت تاريخيًا من المراجع الأوروبية أن ثمة سفارة حبشية، قد وصلت إلى بلاط الفونس الخامس، ملك أرجون حوالى ذلك التاريخ. وقد تم الاتفاق على أن يقوم ملك أرجون بإعداد الأسطول اللازم لتلك الحرب على حسابه الخاص. ودمغت تلك الاتفاقية بمصاهرة متبادلة بين الطرفين، فيتزوج الحطى بالأميرة الأرجونية Dona Juana، كما يتزوج ولى عهد البرتغال Don Pedro بأميرة إثيوبية؛ ولذلك بعث ملك أرجون بسفارة من قبله، لإعداد المراسيم الخاصة بالزواج(٦٦). وكان من بين التعليمات التى زودت بها تلك السفارة أن تمر بمصر لاستطلاع أحوالها الحربية تمهيدًا لتنفيذ خطة الغزو.

كذلك لبت فرنسا نداء ملك الحبشة إسحق الأول، رغم انشغالها بحرب المائة عام، فبعث يوحنا دوق برى Jean Duc de Berry سفارة مرت بمصر، ثم صارت فى البحر الأحمر. على أنه لم يصل إلى بلاد الحبشة من تلك السفارة سوى شخص من أهل نابولى يدعى بطرس Pietre. وقد ذكر دى لابروكيير أنه قد لقى ذلك الشخص عام ١٤٣١م يجمع مهرة الصناع لبناء السفن من القسطنطينية استعدادًا لذلك المشروع الصليبى(٦٧)، ولكن المهام الناجمة عن حرب المائة العام لم تدع لملك فرنسا شارل السابع مجالا للمشاركة فى ذلك المشروع. بيد أن التقرير الذى بعث به يوحنا لاستيك Jean de Lastic رئيس هيئة الاسبتارية (رهبان برودس) إلى ملك فرنسا شارل الثامن فى يولية ١٤٨٤م، يدل على اهتمام ملك فرنسا نفسه بالنهوض مع ملك الحبشة لإضعاف القوى الإسلامية. وقد

ذكر de Lastic فى تقريره ما أصاب المسلمين الأحباش من هزائم شنيعة، كما أشار إلى أن ملك الحبشة قد وجه إنذارًا نهائيًا إلى سلطان مصر، يهدده بوجوب معاملة المسيحيين فى بلاده بالحسنى، وإلا فإنه سيباغت بلاد العرب والأماكن المقدسة خاصة وسوريا، ويعمل على تحويل مجرى النيل(٦٨).

والواقع أن الصراع العنيف بين الإمارات الإسلامية وملوك الحبشة، هو الذى ألجأهم للاستعانة بالقوى الأوروبية والتفكير فى المشاريع الصليبية. وفى ١٨ من سبتمبر ١٤٥٠م.. وصل رد ملك أرجون ألفونس الخامس إلى ملك الحبشة بصدد الغرض السالف، وقد جاء فيه أن ألفونس الخامس يخشى غوائل الطريق بين بلاده والحبشة. ومع ذلك.. فإنه طلب إلى النجاشى أن يعمل على تحويل مجرى النيل، ومهاجمة حدود مصر الجنوبية، فى الوقت الذى تغزو فيه جيوش أرجون فلسطين وبيت المقدس من الشمال، وأمد الحطى بعدد قليل من الصناع وأرباب الحرف(٦٩).

كذلك كانت ثمة مشروعات اقتصادية لتحقيق الفكرة الصليبية، من بينها قتل التجارة المملوكية وإقفال البحر الأحمر. وقد ذكر رامون لال Ramon Lall أنه إذا امتنع الأوروبيون عن شراء البهار من المصريين مدة ستة أشهر فقط.. فإن ذلك سيحدث نكبة اقتصادية كبرى لدولة المماليك(٧٠). ومن أجل ذلك دأب سلاطين المماليك على مراقبة البحر الأحمر، وعدم السماح للأوروبيين باجتيازه إلا باذن خاص من السلطان. ويعلل هايد Heyd تلك الحيطة الشديدة بتخوف المماليك من قيام محالفة بين ملوك أوروبا وملوك الحبشة(٧١).

المشروعات الصليبية بين البرتغال والحبشة

فى أخريات القرن الخامس عشر الميلادى.. غدت مملكة البرتغال متجه دولة الحبشة؛ لتنفيذ المشروع الاستعمارى الصليبى، إذ أن دولة البرتغال الناشئة قد عرفت بحماسها الدينى فضلا عن دربتها بأساليب الحروب البحرية. وفى سنة ١٤٩٠م وصل إلى الحبشة برتغالى، اسمه پيرو دى كوڤلهام Pero di Covilham؛

فأكرم ملك الحبشة إسكندر الأول وفادته، وأبقاه فى عاصمة ملكه، حيث تزوج هناك. واختمرت فى ذهن الحطى فكرة إحياء المشروع الصليبى، الذى فكر فيه إسحق الأول من قبل، فاتخذ من كوڤلهام أداة للسفارة بينه وبين يوحنا الثانى ملك البرتغال، ومباحثته فى معاونته للإطباق على مصر من الشمال والجنوب. ولكن المشروع لم يطل أجله؛ إذ انتهى بعودة كوڤلهام إلى شوا فى جنوب السودان؛ بسبب شجار حدث بينه وبين بعض أهالى البلاد الواقعة فى طريقه[٧٢].

كذلك انتهزت هيلانة ملكة الحبشة فرصة تربص الأسطول البرتغالى بالأسطول المصرى فى مياه البحر الأحمر والمحيط الهندى؛ لتفاوض ملك البرتغال عمانويل Emmanuel فى عقد محالفة حربية معه، ففكرت فى إرسال سفارة من القساوسة الأحباش لتلك المهمة، ولكنها أدركت أن هؤلاء لن يستطيعوا القيام بها. فأوفدت أرمينيًا اسمه ماثيو Mathieu سنة ١٥١٠م، ومعه رسالة أهم ما جاء فيها[٧٣] «باسم الله، السلام على عمانويل سيد البحر وقاهر المسلمين القساة الكفرة. تحياتى إليكم ودعواتى لكم، لقد ورد إلينا من قبل قبطانكم ترستان دى كونها Tristan de Cunha رسولان، هما: الأسقف يوحنا وجوميز Gomes، يطلبان إمداده بالعمال والجنود. فأظهر رسولنا ماثيو لقبطانكم العظيم ـ الذى يدافع عن عقيدة المسيح ويحارب فى الهند ـ استعداده لأن يرسل له ما يشاء من الرجال والجنود، لقد وصل إلى مسامعنا أن سلطان مصر قد جهز جيشًا ضخمًا؛ ليضرب قواتكم وليثأر من الهزائم التى ألحقها به قوادكم فى الهند[٧٤]. ونحن على استعداد لمقاومة هجمات الكفرة بإرسال أكبر عدد من جنودنا فى البحر الأحمر أو إلى مكة أو جزيرة باب المندب، وإذا أردتم.. فإننا نسيرها إلى جدة أو الطور؛ وذلك لنقضى قضاء تامًا على جرثومة الكفار.. ولعله قد آن الوقت لتحقيق النبوءة القائلة بظهور ملك مسيحى، يستطيع فى وقت قصير أن يخضع الأمم الإسلامية المتبربرة.. وأرجو أن تضعوا كل ما يقوله ماثيو موضع التقدير كما لو كنا نحن القائلين له شخصيًا؛ لأنه أثير لدينا، ولذلك اخترناه ليقوم بهذه المهمة.. ونرسل لكم مع ماثيو صليبًا مصنوعًا حقيقة من قطعة من الصليب الأصلى. وإذا

شاء جلالتكم أن نرتبط بأواصر المصاهرة بين بناتكم وأبنائنا، وبين أبنائكم وبناتنا.. فإن هذا يكون أمرًا مرغوبًا فيه لدينا ومفيدًا للطرفين، كما أنه سيغدو فاتحة اتفاق آخر. نريد أن نرتبط به معكم.. ولما كانت ممتلكاتنا موغلة فى الداخل، وبعيدة عن البحر الذى ليس لنا فيه قوة أو سلطان.. فإن الاتفاق معكم ضرورى؛ إذ أنكم أهل بأس شديد فى الحروب البحرية... وليس ثمة شك فى أن الوقائع التى حاربتم فيها بالهند، هى وقائع باهرة معجزة... وإذا أردتم تجهيز ألف سفينة حربية.. فإنا نمدكم بالرجال، الذين تحتاج إليهم تلك السفن، كما نتعهد بإمدادكم بأوفر المؤن»[٧٥].

وفى الخطاب السالف إشارات متعددة، منها أن الذى دفع الحبشة إلى الرغبة فى محالفة البرتغال ما أحرزته هذه الدولة من انتصارات باهرة فى المحيط الهندى ضد القوات المصرية، وأن الحبشة محتاجة إلى السفن لنقل قواتها لغزو مكة أو قفل البحر الأحمر عند الطور شمالا، أو من جهة باب المندب جنوبًا.

أما ما كان من أمر السفير ماثيو.. فإنه عرج ـ أول الأمر ـ على مياه الهند لمقابلة البوكرك قائد الأسطول البرتغالى، ثم سافر إلى مملكة البرتغال، حيث استقبله ملكها عمانويل، ولكن مباحثاته معه لم تسفر عن شىء، ويقال إن ماثيو لقى نهاية بائسة فى بلاد الحبشة[٧٩].

ومهما يكن من شىء.. فإن الرغبة المتبادلة بين الحبشة والبرتغال لعقد محالفة حربية ضد المسلمين، إنما هى فصل من قصة الحرب الاقتصادية ضد مصر. فقد كان لسان حال كل من فاسكو دى جاما والبوكرك وملاحى البرتغال يقول إنهم يعملون فى البحار لاستخلاص بيت المقدس. ومن الأدلة على ذلك ما أجاب به عمانويل ملك البرتغال سنة ١٥٠٥م ـ على إشارة البابا يولويوس الثانى بإيقاف الحملات إلى مياه الهند؛ رغبة فى تحسين العلاقات بين دول البحر الأبيض والدولة المملوكية؛ إذ أكد عمانويل للبابا أنه ليس عازمًا على المضى فى نقل التجارة المملوكية فقط، بل إنه سيجاهد فى سبيل المسيحية؛ حتى يجعل من مكة هدفًا لجنوده ومدافعه[٧٧]. وقد ارتبطت كثير من نواحى التوسع البحرى

الاستعمارى للبرتغال ببلاد الحبشة. ومن هذا القبيل تفكير البوكرك فى تحويل مجرى النيل، وهو المشروع الذى حاول أن ينفذه كثير من ملوك الحبشة قبل ذلك، وإنما الجديد فى خطة البوكرك وثوقه التام من إمكان تنفيذ هذا المشروع فى سهولة ويسر. ولذلك.. بعث إلى ملك البرتغال، يطلب إمداده بالعدد الوافر من العمال المدربين على قطع الصخور وحفر الخنادق، إلا أن المشروع ـ رغم ذلك ـ لم يخرج إلى حيز التنفيذ.

كذلك ألفى لوبو سيرز Lopo Searz خليفة البوكرك فى مياه الهند أنه فى حاجة إلى معونة ملك الحبشة؛ للاستيلاء على جدة أو القضاء على دولة المماليك تمامًا؛ ولذلك خرج أحد رجاله وهو الفاريز Alvarez إلى بلاد الحبشة للمباحثة فى الحصول على معونتها، وقد خلف لنا هذا السفير مشاهداته عن أحوال تلك البلاد(٧٨).

وقد نتج عن اتصال البرتغال بالأحباش منذ أوائل القرن السادس عشر، أن أخذ المذهب الكاثوليكى ينتشر فى بلاد إثيوبيا. وانقسم مسيحيو الحبشة إلى قسمين: قسم يؤازر المذهب الكاثوليكى، وقسم يعارضه ويستمسك بالتبعية للكنيسة المرقسية. وقد نجح الفريق الأول فى تعيين مطران كاثوليكى للحبشة، هو أحد البرتغاليين المقيمين فى بلاط شوا. لكن النجاشى سوسينوس (١٦٢٥ ـ ١٦٣٢م) الذى تقبل المذهب الكاثوليكى، لم يستطع مقاومة التيار المذهبى القديم، فتنازل عن العرش، وخلفه فاسليوس (١٦٣٢ ـ ١٦٣٧) الذى عادت الحبشة فى عهده إلى تبعيتها للكنيسة المرقسية(٧٩).

تأثر الأقليات بمسيرة العلاقات بين مصر والحبشة

سبقت الإشارة ـ فى الفصل الأول ـ إلى العداوة القائمة بين المسيحيين والأقلية الإسلامية ببلاد الحبشة وما كان يضطرم بين الفريقين من شحناء وحروب. وفى مصر تعرض الأقباط لبعض ألوان الاضطهاد أيضًا، وأخذت بلاد الحبشة تتدخل لصالحهم. ولم يكن ذلك قاصرًا على العصر المملوكى؛ إذ المعروف أن الحبشة قد أفسحت صدرها لطائفة كبيرة من الأقباط الفارين من

اضطهاد الحاكم بأمر الله. كذلك آوى ملك الحبشة، لاليبلا، عدداً منهم على أثر اضطهاد السلطان الكامل الأيوبى لهم أثناء محاصرة الصليبيين لدمياط[٨٠]، وتدخل ملوك الحبشة لإيقاف الاضطهادات التى كانت تنزل بالقبط. ففى سنة ١٣٢١م مثلا.. أوقع الناصر محمد بالأقباط اضطهاداً مروعًا، هدمت فيه كثير من كنائسهم، ولحقت بهم ضروب الأذى والمهانة، فاستثار هذا الاضطهاد ملك الحبشة عمدا سيون، كما استثار ملوك أوروبا[٨١]. فبعث الحطى سفارة إلى مصر فى هذا الصدد، قال عنها النويرى: «وفى سنة ٧٢٦ هـ - ١٣٢٥م وصل إلى القاهرة رسل متملك الحبشة، ومثلوا بين يدى السلطان فى قلعة الجبل فى يوم الاثنين ١٦ محرم. وكان مضمون رسالتهم من ملكهم أنه بلغه أن كنائس النصارى غلقت، وأن النصارى فى ذلة وهوان، والتمس من السلطان الإحسان إليهم وفتح كنائسهم، وأنهم إذا لم يعاملوا بالإحسان عامل من ببلاده من المسلمين، وما بها من المساجد كما يفعل بالنصارى وكنائسهم فى مصر.» وذكروا عنه أنه قال «إن نيل مصر الذى به قوام أمرها وصلاح أحوال ساكنيها مجراه من بلادى وأنا أسده، فضحك السلطان من كلامهم واستقل عقل رسلهم، وعوملوا بغاية الاطراح والإهانة»[٨٢].

وقد قام ملك الحبشة عمدا سيون بالتنكيل فعلا بمن فى بلاده من المسلمين، فسعى الفقيه عبد الله الزيلعى[٨٣] لدى الأبواب السلطانية فى أن يتكتب البطرك رسالة إلى الحطى «يكف أذيته عمن فى بلاده من المسلمين، وأخذ حريمهم ورسم له بذلك، وكتب البطريرك كتابًا بليغًا شافيًا فيه معنى الإنكار لهذه الأفعال، وأنه حرم هذا على من يفعله بعبارات أجاد فيها»[٨٤]. وقد أورد العمرى أيضًا خبرًا غريبًا عن ملك الحبشة عمدا سيون؛ إذ قال «وبلغنا أن القائم بها الآن أسلم سرًا واستمر على إظهار النصرانية إبقاء لملكه»[٨٥]. إلا أنه ليس هناك من القرائن أو الحوادث التاريخية ما يؤيد هذا النبأ.

وكذلك واصلت دولة المماليك اضطهادها للقبط، فيما بين سنتى ١٣٥٠ و ١٣٦٠، وتدخل الحطى فى هذه المرة أيضًا فلجأ إلى سياسة التهديد، وقبض على

جميع من بمملكته من الكارمية، وخرب ما وسعه من التخريب فى الإمارات الإسلامية بالحبشة، وبعث بجيوشه لتغير على حدود مصر الجنوبية. فلم يسع السلطان المملوكى إزاء ذلك الخطر إلا أن يطلق سراح البطرك مرقس، الذى كان قد زج به فى السجن، واقتنع ملك الحبشة بذلك العمل فعاد أدراجه واستكتب السلطان البطرك رسالة إلى ملك الحبشة؛ لإطلاق سراح من قبض عليهم من التجار المصريين، وذهب بعض القساوسة بهذه الرسالة إلى الحبشة، وعادت المياه إلى مجاريها[٨٦]. وفى سنة ٧٨٣هـ (١٣٨١م) وقع حادث مشابه لهذا من إغارة الجيش الحبشى على أسوان، وتوسط البطرك فى إنهاء تلك الأزمة[٨٧].

وفى سنة ١٤٣٣م.. أصدر السلطان برسباى منشورًا باضطهاد القبط وإغلاق كنيسة القيامة، والقبض على البطرك كرد فعل لقرصنة القطلانيين، وتنكيل إسحق الأول ملك الحبشة بالمسلمين فى بلاده[٨٨]. ثم صلح الحال فى أوائل عهد الملك زرعة يعقوب، الذى بعث إلى السلطان برسباى فى سنة ١٤٣٧م، يطلب ترسيم مطران للحبشة والإحسان إلى المسيحيين عامة فى مصر. فنفذ برسباى الجانب الأول من مطالب السفارة، إلا أنه لم يبر بوعده فيما يتعلق بالجانب الآخر، فعزل البطرك من الإشراف على مواريث أهل الذمة، وعين مكانه أحد المقربين إليه، ثم صادر خيرات دير الغطاس Epiphany على مقربة من بحيرة البرلس[٨٩].

كذلك عرف السلطان جقمق بتعصبه الشديد أيضًا، فاستمر فى اضطهاد الأقباط، وخرب كنيسة المعلقة سنة ١٤٣٨م، وأذاق البطرك الأمرَّين عندما قدم حسابه عن مواريث القبط، الذين لم يتركوا ورثة لهم. فلما وصلت أخبار تلك الاضطهادات إلى الحطى زرعة يعقوب.. أرسل سفارة إلى القاهرة فى سنة ٨٤٧ هـ (١٤٤٣م)، ومعها هدايا حافلة، وكتاب من «المحب الصادق زرع يعقوب المكنى قسطنطين من نسل سيف أرعد من بنى سليمان بن داود عليهما السلام، ملك سلاطين الحبشة وصاحب النواب بالمملكة النجاشية.. وغير ذلك من بلاده فى الجهات الشرقية والغربية قريبها وبعيدها إلى البحر المحيط... إلى الإمام

الشريف العالى الأوحدى السلطانى الملك الظاهر جقمق سلطان المسلمين والإسلام بمصر والشام، سيد الأنام، الخاص منهم والعام»[٩٠].

وبعد ديباجة بعث فيها التحيات للسلطان ولأمرائه ومقدمى الجيوش والقضاة قال «وقصدنا تجديد ما سبق من العهود من الملوك المتقدمين من بلادنا وبلادكم اتباعًا لآثارهم المشكورة.. وآخر ذلك ما كان فى أيام الملك الظاهر برقوق ونجله الناصر، وأنهم كانوا قائمين بالعدل، خصوصًا بإخواننا النصارى (كذا)، ويرجعوا عنهم القوم الرائدين وهن كنائسهم والقتل على من كان فيها من الأقسة والرهابين، ومن كان منهم يموت يدفن من غير تعرض أحد، ومن كان لا وارث له وخلف شيئا من الموجود.. يتولى أمره أبونا البطريك ليستعين به على كلف الواردين والمنقطعين. وقد بلغنا الآن أن هذه القواعد قد تغيرت من قبل قوم كانوا عن طريق الحق حائدين، وفى طريق الظلم خائضين. والآن إذا مات أحد من إخواننا النصارى لا يدفن إلا بعد مشقة كبيرة لأهله وأقاربه. ويؤخذ منهم ما لم تجر به عادة فى أيام الملوك السالفين» ثم أخذ يسرد ما يلاقيه النصارى من المضايقة فى طقوسهم الدينية وأعيادهم، ثم قارن بين تلك المعاملة وبين سياسته مع مسلمى الحبشة فى لهجة مشوبة بالإنذار؛ إذ قال «وإخواننا النصارى الذين هم الآن تحت عز سلطانكم ومملكتكم الشريفة، نفر قليل جدًا، ضعفاء الحال مساكين فى كل الجهات، ولا يمكن أن يكونوا قدر قيراط من المسلمين القاطنين بإقليم واحد من بلادنا. وإنكم ـ حفظكم الله ـ لا تخفى عليكم ما فى بلادنا الواسعة من المسلمين تحت حكمنا. ونحن لهم ولملوكهم مالكون، ولم نزل نحن إليهم فى كل وقت وحين، وملوكهم عندنا بالتيجان الذهب راكبون الخيول المسومة، وعامتهم فى أسبابهم آمنون مطمئنون على أنفسهم وأولادهم وأموالهم... ولانأخذ منهم جزية ولا شيئًا قليلا ولا كثيرًا. وإن كنتم فى شك من ذلك.. فاسألوا التجار المترددين إلى بلادنا؛ ليخبروكم بذلك بالحق وبالصدق، سواء سألوا الجبرتية الذين هم يقيمون بالجامع الأزهر كم لهم سلطان من المسلمين»، ثم ختم رسالته راجيًا من السلطان إصدار أوامره بعمارة قبر مريم عليها السلام، وإعادة بناء دير الغطاس

الذى تهدم نتيجة الاضطهادات السالفة، وإصدار الأمر لنائب القدس بألا يمنع الأحباش المقيمين هناك من بناء مشهد لأحد موتاهم، والتواصى عمومًا بالإحسان والرعاية للنصارى فى مصر[٩١].

وجاء رد السلطان جقمق على لسان رسوله يحيى بن أحمد بن شاد بك، الذى بعث به إلى الحبشة بعدم الموافقة على جميع ما سأل الحطى «لكون نصارى الديار المصرية قد كثر تعديهم واستطالتهم بالمبالغة فى البناء ولإحداث الكنائس ونحو ذلك»[٩٢]، وقد استاء الملك زرع يعقوب من هذا الرد الفاتر فعوّق القاصد المصرى ببلاطه. وفى أثناء وجود ابن شاديك ببلاط الحطى، لقى ملك المسلمين بالحبشة شهاب الدين هزيمة كبيرة على يد جيوش الحطى، فأمر الملك بأن يذهب السفير المصرى إلى ساحات القتال ليشهد صرعى المسلمين بها. فلما عاد إلى مصر وأخبر السلطان بما رأى بادر جقمق إلى إحضار البطرك، وأن يكتب إلى ملك الحبشة كتابًا بخطه يطلع فيه ملك الحبشة على ما آل إليه الأقباط من مصير. ورغم تعويق الحطى لرسول البطرك أربع سنوات.. فإنه عاد يحمل الهدايا، وفى صحبته سفارة حبشية[٩٣].

ومما تجب ملاحظته أن اضطهاد سلاطين المماليك للقبط فى مصر، لم يكن اضطهادًا مستمرًا بسبب حاجة الإدارة المملوكية إليهم؛ لدربتهم فى نواحيها المختلفة. كذلك لم تكن مؤازرة ملوك الحبشة ونصرتهم لقبط مصر عن طريق التهديد والتلويح باضطهاد المسلمين فى بلادهم، إنما لجئوا أيضًا إلى مهادات سلاطين المماليك لهذا الغرض. فيقال إن هدية ملك الحبشة للناصر محمد فى ٧١٣ هـ قومت بأكثر من مائة ألف دينار[٩٤]، كذلك بعث ملك الحبشة داود (١٣٨٣ ـ ١٤١١) إلى الظاهر برقوق بهدية من طرائف الحبشة، يحملها عشرون جملاً، ومن بين محتوياتها قدور ملئت بقطع من الذهب على شكل الحمص[٩٥].

ومهما يكن من شىء.. فإن مؤازرة الحبشة لأقباط مصر لم تأت بنتيجة. ومن الناحية الأخرى.. لم تستطع السلطنة المملوكية أن تتدخل تدخلا إيجابيا لصالح

المسلمين فى الحبشة. ولم تعد مسألة الأقليات وسيلة للإنذار والتهديد لتحقيق مصالح معينة.

لقد كان يفد إلى مصر بعض المسلمين من الأحباش؛ لتلقى العلم فى الجامع الأزهر، وقد خصص لهم رواق عرف باسم (رواق الجبرتية)، وبرزت منهم طائفة من العلماء أمثال الشيخ الإمام الزيلعى فخر الدين عثمان بن على شارح الكنز والمتوفى ٧٤٣ هـ ـ ١٣٤٣م، والمحدث الزيلعى جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد المتوفى ٧٦٢ هـ ـ ١٣٦١م، والعارف بالله الشيخ على الجبرتى، الذى اعتقد السلطان قايتباى فى صلاحه وولايته وتوفى سنة ٨٩٩ هـ ـ١٤٩٣م[٩٦].

كذلك وصل الكارمية بمتاجرهم إلى بلاد الحبشة وبلاد الصومال (الطراز الإسلامى)، ولعل أعظم ما أقبلت عليه تلك الجهات الإفريقية من متاجر مصر أقمشتها، فقد ذكر Demombynes أن ملوك المسلمين بالحبشة كانوا يؤدون إلى الحطى ضريبة سنوية من الأقمشة الحريرية والقطنية، التى تأتيهم من مصر[٩٧]. كذلك ذكر ابن بطوطة أن من بين كسوة أهل مقدشو دراعة من المقطع المصرى وعمامة مصرية أيضًا، وأن زى سلطان مقدشو فرجية قدسى أخضر، وتحتها ثياب مصر وطروحاتها[٩٨]. كما أورد هذا الرحالة أيضًا شيئًا من أنواع المعاملات التجارية بين التجار المصريين وأهل تلك الجهات، فقال: «وقد لقى التجار المصريون وغيرهم كرما من أهل هذه البلاد (مقدشو)؛ فقد كان من عادتهم أنه إذا وصلت مركب تجارية إلى المرسى تصعد الصنابق وهى القوارب الصغار إليه، فى كل صنبوق جماعة من شبان أهلها، وينزل التاجر عندهم إلا من كثر تردده إلى البلد.. فإنه ينزل حيث شاء، فإذا نزل عند نزيله باع له ما عنده واشترى له. ومن اشترى منه أو باع منه بغير حضور نزيله فذلك البيع مردود عندهم، ولهم منفعة فى ذلك»[٩٩]. ومن هذا نرى أن الكارمية كانوا يتخذون لهم عملاء فى تلك الجهات، يشرفون على عمليات البيع والشراء.

الحبشة ومياه النيل فى العصور الوسطى

من الرسائل المتبادلة بين ملوك الحبشة وسلاطين المماليك، ومن الحوادث السالفة أيضًا تظهر نقطة غريبة، وهى تخوف سلاطين مصر من إقدام الأحباش على تحويل مجرى النيل، ولاشك فى أن السلاطين قد أدركوا أهمية منابع النيل بالنسبة لحياة مصر وخيراتها. وقد ورد فى مذكرات جوانفيل Joinville أن أحد سلاطين مصر قد سعى للوصول إلى منابع النيل، فأرسل طائفة من رجاله بلغت من النهر مكانًا تأتى لتشرب منه الأسود والفيلة، واصطدموا بجبل شاهق لم يستطيعوا عبوره فعادوا أدراجهم(١٠٠). ولعل أول إشارة إلى مسألة فيضان النيل واتصالها بالحبشة، تلك التى أوردها ابن العميد، ونصها «أرسل المستنصر الفاطمى البطرك ميخائيل إلى بلاد الحبشة بهدايا وتحف كثيرة، فتلقاه ملكها وسجد بين يديه وسأله عن سبب قدومه، فعرفه أن نيل مصر قد نقص وأضر بالبلاد وبأهلها، فأمر أن يفتح السد الذى يجرى منه الماء إلى الديار المصرية لأجل قدوم البطرك. وقد زاد النيل فى ليلة واحدة ثلاثة أذرع، وتكامل النيل، ورويت ديار مصر»(١٠١).

والحقيقة أن الاعتقاد بوجود منابع النيل فى الحبشة قد ساد أثناء العصور الوسطى، وآية ذلك ما جاء بكتابات الرحالة أمثال G. Lannoy - Jacques de Vernne La Broquiere وغيرهم، وكلهم متفقون على أن النجاشى يستطيع التحكم فى منابع النيل. وقد روى الرحالة Georges Lengherand خبر محادثة جرت بين السلطان المملوكى وسفير ملك الحبشة فى سنة ١٤٨٦م، جاء فيها أنه عندما احتل قاصد الحبشة مجلسه فى حضرة السلطان، توجه إليه قائلا: «يامولاى السلطان هل ترغب فى عقد صلح مع سيدك وسيدى القديس يوحنا. فذهل السلطان وقال له إن أسلافى لم يعتادوا الحرب ضد القديس يوحنا، فهب السفير وصاح فى وجه السلطان: لا تقل القديس يوحنا، وإنما قل إنه ملكك، وكرر هذه العبارة ثلاث مرات. وأخيرًا قال له إذا لم تعترف بأن القديس يوحنا ملكك فإنى سأبعث له.. وبعد تفكير، أهاب به السلطان قائلا: «إننى أحب أن أكون فى سلام

مع ملكى القديس يوحنا»؛ فرد السفير إن ما قلته فهو صدق، والقديس يوحنا سيدك حقًا، وفى يده حياتك أو موتك، والسبب فى ذلك ما تعلمه من أن النيل الذى يأتى من الهند، والذى تحتاجون إلى مياهه كل عام لرى الأرض، هو فى يد ملك الحبشة، فيستطيع أن يقطع عنكم جريانه، فتتعرض أنت وبلادك إلى الموت عطشا». ثم اعترف السلطان بكل ذلك وطلب منه السفير الحبشى أن يسمح له بزيارة بيت المقدس، وألا يستدفعه ضريبة، كما يسمح لغيره من الحجاج المسيحيين بذلك أيضًا، ويقال إن السلطان قد احتمل كل ذلك لأنه يعلم أن بلاد القديس يوحنا هى مصدر مياه النيل(١٠٢).

وواضح أن ما ذكره لنجهران إنما هو مجرد أقصوصة، فلا يمكن قبول هذا الحوار على أنه حقيقة تاريخية. إنما يصور على كل حال ذلك السلاح، الذى لجأ ملوك الحبشة كثيراً إلى إشهاره فى وجه سلاطين المماليك، فهدد الملك عمدا سيون على لسان رسله، الذين أتوا إلى الناصر محمد بن قلاوون بأن نيل مصر الذى به قوام أمرها وصلاح أحوال ساكنيها مجراه من بلادى وأنا أسده. فضحك السلطان من كلامهم واستقل عقل رسلهم(١٠٣). وورد فى رسالة زرع يعقوب إلى السلطان المملوكى جقمق ما نصه «وليس يخفى عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجر إليكم من بلادنا، ولنا الاستطاعة على أن نمنع الزيادة التى تروى بها بلادكم من المشى إليكم؛ لأن لنا بلاداً نفتح لها أماكن فوقانية يتصرف فيها إلى أماكن أخرى قبل أن يجىء إليكم، ولا يمنعنا عن ذلك إلا تقوى الله والمشقة على عباد الله»(١٠٤).

ووصل الإغراق بإحدى الروايات التاريخية إلى الزعم بأن سلاطين مصر، كانوا يؤدون إلى ملوك الحبشة ضريبة سنوية تطييبًا لنفوسهم، واستجلابًا لرضاهم حتى لا يمسوا منابع النيل بأذى، وتقدر هذه الضريبة بحوالى ثلاثة آلاف مثقال من الذهب. ولما امتنع السلطان الملوكى عن تأدية هذه الضريبة المقررة فى عهد الملك داوود (١٣٨٠ ـ ١٤٠٩م). . أخذ الحطى يتجهز لتحويل مجرى النيل، فبادرت مصر إلى إرسال الهدايا، ومن بينها أربع قطع من الصليب الأصلى(١٠٥). كذلك

كان من بين مطالب ملك أرجون من الحطى سنة ١٤٥٠م أن يقطع مجرى النيل عن مصر فتمسى أرضها يبابا. ويظهر من الخريطة التى رسمها Fra Mauro تصميم للفكرة القائلة بقطع النيل عن مصر وتحويله إلى بلاد السودان[١٠٦]. هذا فضلا عن مشروع البوكرك فى هذا السبيل مما سبقت الإشارة إليه. لقد كان ملك الحبشة يزعم فى رسائله إلى سلاطين مصر أن المانع له من الإقدام على هذا المشروع هو إشفاقه على إخوانه من قبط مصر.

وقد ناقش لودلف Ludolph مسألة تحويل مجرى النيل، فقال: إن هذه المسألة قد بلبلت خاطرى كثيرًا على أن أعتقد أنه لو كان هذا الأمر من الممكنات لما تردد ملوك الحبشة فى أن يتخذوه وسيلة للسيطرة على سلاطين مصر، وجعلهم رهن إشارتهم دائمًا... ورغم أنه من العسير تغيير مجرى الأنهار الطبيعية.. فإن هناك أمثلة لهذا التغيير، منها ما ذكره هيرودوت من أن نيتوكريس Nitocres ملك بابل قد حول مجرى الفرات بشق عدة قنوات تجرى فيها مياهه، وكذلك فعل قورش Cyrus ملك الفرس حين غضب على نهر السند، الذى تردى فيه حصان أبيض مقدس فقطعه إلى مائة وستين مجرى... وكذلك عرض لودلف إلى مسألة ازدياد النيل على أثر ذهاب البطرك إلى الحبشة فى عهد المستنصر الفاطمى، فعزا تلك الزيادة المفاجئة إلى أن ملك الحبشة قد أمر بإزالة الصخور والسدود والأشجار التى تعترض مجرى النيل الأزرق؛ فسبب ذلك ارتفاع منسوب الماء فى مصر[١٠٧].

ومما تقدم.. يتضح أن تغيير مجرى النيل كان حقيقة ماثلة فى أذهان سلاطين المماليك يحسبون لها حسابًا. بيد أن رواية النويرى صريحة فى رفض هذا الزعم؛ إذ أنه لما هدد رسل عمدا سيون بقطع النيل عن مصر، كان رد السلطان الناصر محمد أن ضحك من كلامهم واستقل عقل رسلهم.

العلاقات الكنسية بين الحبشة (إثيوبيا) ومصر فى العصر الحديث

مما سبق.. يتضح كيف سارت العلاقات بين الكنيسة المرقسية فى الإسكندرية والكنيسة الحبشية، وكيف ظل بطرك الإسكندرية يرسم رهبانًا من أقباط مصر

لتولى المطرانية فى الحبشة، وذلك منذ القرن الرابع الميلادى حين اعتنقت تلك البلاد المسيحية بتأثير الكنيسة القبطية فى مصر.

وكانت مرتبة مطران الحبشة المصرى بدرجة أسقف، واستمر الحال على هذا النحو، رغم محاولات الكنائس الأوروبية الكاثوليكية السيطرة على بنية الكنيسة الحبشية. بيد أنه مع تصاعد الشعور الوطنى، وتملك رموز الاستقلال ومؤسساته - بدءًا من تغيير اسم الدولة من الحبشة إلى إثيوبيا - بدأت تلك العلاقات الكنسية بين مصر وإثيوبيا تدخل فى إطار المفاوضات؛ بهدف أحقية الكنيسة فى تلك البلاد فى رسامة أساقفة إثيوبيين.

وقد تم ذلك فعلاً فى ٣١ مايو ١٩٢٩؛ حين أصدر الأنبايوانس بطريرك الاسكندرية قرارًا بتعيين أساقفة من الإثيوبيين. وكان ذلك استجابة للمطالب الوطنية لإثيوبيا، بعد ستة عشر قرنًا من اعتناق الحبشة للمسيحية.

وعندما تعرضت إثيوبيا للاستعمار الإيطالى.. سعت الدولة المستعمرة إلى محاولة فصل الكنيسة الإثيوبية عن الكنيسة المرقسية مذهبًا، وضمها إلى المذهب الكاثوليكى بدلاً من المذهب الأرثوذكسى القبطى المصرى. وازدادت فعلا أعداد من تحولوا إلى المذهب الكاثوليكى زيادة ملحوظة خلال تلك الفترة الاستعمارية حتى قيام الحرب الإيطالية الحبشية. وقد ساعد على هذه الزيادة أحوال مصر السياسية التى كبلها الاستعمار البريطانى، والتى لم تمكن الكنيسة المرقسية بالإسكندرية من الاهتمام بتنظيم علاقاتها مع الكنيسة الإثيوبية.

وبعد الحرب العالمية.. تحددت المفاوضات والضغوط من قبل الدولة الإثيوبية؛ للحصول على استقلال حقيقى للكنيسة. وقد بدت أوجه الخلاف بين الفريقين: المصرى والإثيوبى فى استمساك كل منهما بنص ما جاء فى قرارات المجمع الكنسى فى نيقية، الذى فصل الكنيسة الشرقية عن البيزنطية. وبينما كان الفريق الإثيوبى فى التفاوض يلتزم بالترجمة الأمهرية المنقولة عن النص اليونانى.. كان الفريق المصرى يستمسك بالترجمة العربية المنقولة عن الأصل القبطى. وتمخضت

المفاوضات إلى ما أصدره بطريرك الإسكندرية الأنبايوساب من قرار يرفع مرتبة الرئيس الدينى للكنيسة الحبشية إلى درجة رئيس أساقفة، وكان ذلك فى يوليو ١٩٤٨، غير أن هذا القرار لم يكن كافيًا لإرضاء النزعة الوطنية الاستقلالية فى إثيوبيا.

واستمر الحال على هذا النحو حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢؛ حيث امتلكت مصر قرارها واتخذت إطارها السياسى فى التضامن مع الشعوب الإفريقية والآسيوية. ومن ثم تمكنت من حل الخلاف بين الجانبين باتفاقية يونية ١٩٥٩، وتقرر جعل رئيس الأساقفة الإثيوبى بمرتبة بطريرك جاثليق على كنيسة إثيوبيا، وله المرتبة الثانية من بين مراتب الكرازة المرقسية. وفى ٢٨ يونية من تلك السنة توج البابا كيرلس السادس الأنبا باسيليوس الإثيوبى بطريركا چاثليقيا، وتم ذلك فى حضور الإمبراطور هيلاسلاسى فى حفل دينى مهيب، أقيم فى الكاتدرائية المرقسية بالقاهرة.

وفى هذا الحفل.. أقسم الأنبا باسيليوس الإثيوبى اليمين التى نصت عليها الاتفاقية، وهى توضح نوع العلاقة الجديدة من استقلال الكنيسة الإثيوبية والأبوة الروحية للكنيسة المرقسية القبطية فى مصر. ونص اليمين «أتعهد بأن أظل أمينا لعقيدتى وإيمانى القبطى الأرثوذكسى، إيمان كنيسة الإسكندرية وكرسى القديس مرقس الإنجيلى، وأتعهد بأن أحترم قوانين كنيستنا، التى انتقلت إلينا من الرسل وخلفائهم القديسين الثلثمائة والثمانية عشر المجتمعين فى نيقيا، وآباء الكنيسة، وأن أجل بابا الإسكندرية، بطريرك الكرازة المرقسية، خليفة القديس مرقس، وأن أعتبره بابانا. وقد عاهدت نفسى ألا أشترك فى سيامة بطريرك لإثيوبيا أو أى بطرك آخر، دون موافقة واعتماد قداسة بابا الكرازة المرقسية. وأعد بأن أظل وفيًا لعهدى أمام الله والكنيسة».

وقد تضمنت الاتفاقية تأكيد اعتبار بطريرك الأقباط فى مصر الأب الروحى الأعلى لكنيسة القديس مرقس بإثيوبيا، واعتبار شخصه مصونًا لا يمسه تجريح، وأن يذكر اسمه فى كافة الصلوات بإثيوبيا.

هوامش الفصل الخامس

١ـ Coulbeaux, Hist. Politique et Religieuse de l ' Abysinie t. 1 p. 1793

٢ ـ مرقس سميكة باشا، دليل المتحف القبطى ـ جـ ٢ ص ١٤٨ ـ ١٤٩ .

٣ ـ بمجرد أن يخلو كرسى المطرانية فى الحبشة يقوم النجاشى بفرض ضريبة على المسيحيين من رغبته لشراء مطران جديد contribution a l'achat d'un abauna ويقال إن ما يتجمع من المقاطعات المختلفة يبلغ حوالى عشرين أو ثلاثين ألف هريلر.Coulbeaux, T. 1. p 162 .

٤ ـ أبو صالح الأرمنى ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧ .

٥ ـ كتاب فتوح الحبشة (ed. Rene Basset ص ١٧)

٦ ـ Coulbeaux, op. cit. T. l p. 161.

٧ ـ مما جاء فى كتاب ملك الحبشة إلى صاحب النوبة «أرجوك أن تعيننى فى الحصول على مطران وقساوسة لمملكتى التى حرمت منهم زمنا طويلا . أكتب إليك يا أخى فى هذه العبارات المؤثرة مستنهضًا إياك لتحول دون اندثار المسيحية فى مملكتى . وها قد تتابع على بطركية الإسكندرية ستة بطاركة لم يعن واحد منهم ببلادى، هذه الأرض التعسة التى تفتقر إلى رحمة الآباء . فقد مات جميع أهل الصلاح، وساد الحزن جميع الكنائس .

٨ ـ صبح الأعشى ـ جـ ٥ ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩ .. Coulbeaux, T. 1, p. 236

٩ ـ Quatremere, Memoires, 11, p. 274.

١٠ ـ أبو صالح الأرمنى ـ كنائس وأديرة مصر ص ٢٩٠ .

١١ ـ السخاوى ـ التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص ٢١٠ .

١٢ ـ العمرى ـ التعاريف بالمصطلح الشريف ص ٤٨ .

١٣ ـ المقريزى ـ السلوك (مخطوط) ـ جـ ٥ ص ٣٨٣ ب.

١٤ ـ دليل المتحف القبطى ـ جـ ٢ ص ١٥٢، أبو صالح الأرمنى ص ٢١٠ .

١٥ ـ Budge, op, cit. vol. 1 p. 163.

Coulbeaux, op. cit. 11. p. 32.

١٦ ـ فى أواخر القرن الرابع عشر قام أحد البنادقة برحلة إلى بلاد الحبشة استغرقت تسعة عشر ومائة يوم من القاهرة إلى شوا، وتفصيل مراحل تلك الرحلة على النحو الآتى:

* من القاهرة إلى قفط بالنيل ١٥ يوما.
* من قفط إلى عيذاب ١٥ يوما.
* من عيذاب إلى سواكن ١٨ يوما.
* من سواكن إلى آدام ١٢ يوما.
* من آدام إلى أسمره ١٦ يوما.
* من أسمره إلى أكسيوم ١٠ أيام.
* من أكسيوم إلى أمحره ٣٠ يوما.
* من أمحره إلى شوا ٣ أيام

١٧ ـ Kammerer, La Mer Rouge T. 1. p. 262.

Wiet, Relations Egypto - Abyssines sous les Sultans Mamlouks p. 119.

١٨ ـ Atiya ' Crusades in the Later Middle Ages pp. 277 - 278.

١٩ ـ Macaire, Hist. de l' Eglise d' Alexanerie p. 322.

٢٠ ـ المقريزى ـ الإلمام ص ٣.

٢١ ـ Coulbeaux, t. 1 p. 288.

٢٢ ـ يضع كل من النويرى (نهاية الأرب ـ جـ ٢٨ ص ٤٦) وابن أبى الفضائل (النهج السديد ص ٣٨٤) ورود كتاب الحطى إلى بيبرس فى سنة ٦٧٢ هـ، أما المقريزى (السلوك ـ جـ ١ ص ٦١٥) وابن الفرات (تاريخ الدول والملوك ـ جـ ٧ ص ٢٤) فيضعانه فى سنة ٦٧٣ هـ وتحديد المؤرخين الأولين هو الصحيح، خصوصًا إذا علمنا أن نتيجة تلك الرسالة كما جاءت فى السلوك ليست صحيحة كما سيتضح.

٢٣ ـ ورد اسم هذا الملك فى الرسالة برسم «محرا أملاك» وهو بالطبع تحريف لاسم Tokuno Amlak.

٢٤ ـ البيكار معناه الحرب (السلوك ـ جـ ١ ص ١٠٥ ـ حاشية).

٢٥ ـ النهج السديد ص ٢٣٠.

٢٦ ـ أوردنا نص هذه الرسالة كاملا فى ملحق بأخر الرسالة.

٢٧ ـ دليل المتحف القبطى ـ جـ ٢ (المجلد الأول) ص ٢٧.

٢٨ ـ نهاية الأرب ـ جـ ٢٨ ص ٤٦.

٢٩ ـ Wiet, Relations Egypto - Abyssines p. 119.

٣٠ ـ السلوك ـ جـ ١ ص ٦١٦.

٣١ ـ Hist. politique et Religieuse de l' Abyssinie T. 1 pp. 288 - 290.

٣٢ ـ السلوك جـ ١ ص ٤٧١.

٣٣ ـ Quatremere, Memoires, 11 pp, 267 - 872 et.

٣٤ ـ R. Basset, Etudes sur l'Historie de l'Ethiopie (Journal Asiatique, Avril - Mai 1881 p. 372.

٣٥ ـ Coulbeauz, Op, sit. t. 1 p. 293.

٣٦ ـ Dela Ronciere, la Decouvert de la Afrique, T. 111 p. 97.

٣٧ ـ Alvarez, Potugeuse Embassy, pp. 243 - 244.

٣٨ ـ Berchem, Syrie du sud (Mat). 2 Ieme Partie pp. 385 - 386.

٣٩ ـ الخفر هو الضريبة المفروضة على الحجاج المسيحيين مقابل حراستهم وخفارتهم أثناء ظعنهم وإقامتهم، والموجب هو ما كان يدفعه الحجاج المسيحيون فى ميناء يافا حتى يسمح لهم بزيارة بيت المقدس. وتذهب هذه الضريبة إلى الخزانة السلطانية مباشرة، أما ما يتجمع من ضريبة الخفر.. فإنه ينفق على ما تتطلبه الطرق من إصلاح وعمارة.

Van Berchem, (Materiaux) Syrie du sud - Jerusalem, pp. 387 - 391.

٤٠ ـ كنيرهم وتقرأ أيضًا كمقبرتهم، ويرجح برسم قراءتها كمنتيرهم من اللاتينية Coementariam أى مقبرة.

٤١ ـ Berchem, Op. cit. p. 394.

٤٢ ـ Ziada, Foreign Relations p. 276.

٤٣ ـ ورد فى الوصف السابق أيضًا أن قصاد الحبشة قد انقطع مجيئهم إلى مصر منذ سنة ٨٢٣ هـ فى عهد الأشرف قايتباى.

٤٤ ـ بدائع الزهور (نشر كاله ومحمد مصطفى) ـ جـ ٥ ص ١٠.

٤٥ ـ Wiet, Relations, Egypte - Abyssines, p 138 (Note).

٤٦ ـ Wiet, Op. Cit. p. 139.

٤٧ ـ بدائع الزهور (بولاق) ـ جـ ٣ ص ٧.

٤٨ ـ النويرى ـ نهاية الأرب ـ جـ ٣٥ ص ٢٧.

٤٩ ـ تم الاتفاق بين الملك يجبا سيون والسلطان قلاوون على رعاية ذلك الدير أيضًا، وتزويده بما يحتاج إليه من مؤن.

٥٠ ـ Budge, Hist of Ethiopia, 1, p. 287.

٥١ ـ Kammerer, La Mer Rouge, t. 1, p. 248.

٥٢ ـ Basset, Etudes sur l'Hist. d' Ethiopie (Journal Asiatique Avril - Mai 1881).

٥٣ ـ زيادة ـ مصر والحروب الصليبية ص ١١٨.

٥٤ ـ من بين المقترحات التى وضعها جان جرمان أن يقوم الحلف المسيحى بهجوم مزدوج على الدولة المملوكية فى مصر والدولة العثمانية فى البلقان (مصر والحروب الصليبية ص ١٤).

٥٥ ـ Atiya, Crusades in the Later Middle Ages, p. 204.

٥٦ ـ مصر والحروب الصليبية ص ١٢٥.

٥٧ ـ Coulbeaux, Op. Cit. t. 1 p. 258.

٥٨ - De La Ronciére, La Decouverte, 1 p. 57, Kammerer, 1, p. 273.

٥٩ - Budge, Hist. of Ethiopia, Vol 1 p. 178.

٦٠ - Coulbeaux, 1, p. 260.

٦١ - Atiya, Crusades, p. 260.

٦٢ - Kammerer, La Mer Rouge, T. 1 , 294.

٦٣ - ذكر المقريزى أن اسم هذا الملك هو إسحق بن داوود بن سيف أرعد (الإلمام ص ٤) ويسميه البعض أبرام كما يعرف فى الراجع الأوروبية أيضًا باسم Gabra Masqal.

٦٤ - جاء فى الإلمام ص ٤ أن فخر الدولة هذا قد رتب له (إسحق) الملك وجبى له الأموال، فصار ملكًا له سلطان وديوان، بعد ما كانت مملكته ومملكة آبائه همجًا، لا ديوان لها ولا ترتيب ولا قانون، فانضبطت عنده الأمور وتميز زيه عن رعيته بالملابس الفاخرة بعد ما كان داود بن يوسف بن أرعد يخرج عريانًا وقد عصب رأسه بعصابة خضراء فسار إسحق يمر فى موكب جليل.

٦٥ - النجوم الزاهرة - جـ ٦ ص ٦٣٧ - ٦٤٠.

٦٦ - Wiet, Relations Egypte - Abyssines, pp. 128 - 129.

٦٧ - Wiet, op. Cit, p. 129.

٦٨ - Wiet, op. Cit, p. 129.

٦٩ - Dela Renciere, La Decouverte de L'Afrique, t. 11, p. 119.

٧٠ - مقال قيت عن المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى، عن كتاب فى مصر الإسلامية.

٧١ - Heyd, Hist. De Commerce du Levant, t. pl, p. 439.

٧٢ - كان كوفلهام من المقربين إلى ملك البرتغال؛ إذ كان عينا له فى حروبه ضد القطلانيين، وبعث به إلى إفريقية لكشف مواطن البهار. وصحبه فى تلك المهمة برتغالى آخر اسمه Piava وقد افترقا عند وصولهما إلى عدن فاتجه Piava شرقًا وكوفلهام جنوبا ليتعرفا على مظان المهمة التى أتيا من أجلها، ثم تقرر أن يجتمعا فى

القاهرة، لكن الخطة لم تكتمل بموت أولهما. أما كوڤلهام فقد طوف فى بحارالهند ثم ذهب إلى هرمز ومنها إلى الحبشة.

٧٣ ـ زيادة ـ مصر والحروب الصليبية ص ١٥، Alvarez, pp. 266 - 270.

٧٤ ـ يشير بذلك إلى معركة ديو البحرية سنة ١٥٠٩م التى أحرز فيها الأسطول البرتغالى انتصارًا كبيرًا على أسطول الغورى.

٧٥ ـ Kammerer, La Mer Rouge, T. 11 - pp. 254 - 255 (Note 1).

٧٦ ـ Wiet, Relations, p. 131 - 132.

٧٧ ـ مصر والحروب الصليبية ص ١٦ـ ١٧.

٧٨ ـ Kammerer, op. cit., p. 265.

٧٩ ـ عبد الله حسين ـ المسألة الحبشية ص ٥٧.

٨٠ ـ أوفد ملك فرنسا شارل الجميل أحد كبار التجار بمدينة Montpellier ليقنع السلطان بضرورة معاملة المسيحيين بالحسنى، كما بعث البابا فى سنة ١٣٢٧م سفارة للاحتجاج على ما لحق القبط من أذى فى سنة ١٣٢١م.

٨١ ـ Wiet, Hist. de la Nation Egyptienne iv, p. 491.

٨٢ ـ النويرى ـ نهاية الأرب ـ جـ ٣١ ص ٦٦.

٨٣ ـ أخذ العمرى معظم معلوماته عن بلاد الحبشة من هذا الفقيه، ويضع Demombynes سفارة الزيلعى لدى السلطان فيما بين سنتى ١٣٣٢ - ١٣٣٨م، وهى المدة التى تولى فيها العمرى ديوان الإنشاء بعد والده Masalik, p. 2. N.1.

٨٤ ـ العمرى ـ مسالك الإبصار ص ٨٩٣ وقد نقله القلقشندى فى صبح الأعشى ـ جـ ٨ ص ٣٣٣.

٨٥ ـ التعريف ص ٣٠.

٨٦ ـ Budge, Op. cit. Vol. 1 p. 299.

٨٧ ـ Wiet, Relations Egypte, p. 124.

٨٨ ـ المقريزى ـ السلوك (مخطوط) جـ ٥ ص ٣٢٩.

٨٩ ـ Ziada, Foreign Relations, pp. 277 - 278.

٩٠ ـ المقريزى، المرجع السابق، ص ٣٣٠.

٩١ ـ النص الكامل لهذه الرسالة وارد فى السخاوى (التبر المسبوك) ص ٦٧ - ٧١.

٩٢ ـ يلقب هذا الرجل باسم قاصد الحبشة، وكان يجيد التكلم باللسان الحبشى (التبر المسبوك ص ٧١).

٩٣ ـ التبر المسبوك ص ٧٢.

٩٤ ـ ابن إياس (بولاق) جـ ٣ ص ٩.

٩٥ ـ القلقشندى ـ صبح الأعشى ـ جـ ٥ ص ٣٣٣.

٩٦ ـ يوسف أحمد، الإسلام فى الحبشة ص ٦٨، أحمد الحفنى الثنائى الأزهرى، الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان ص ٥، ومن هؤلاء الجبرتية أيضًا الشيخ حسن بن برهان الدين الجبرتى والد الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المشهور.

٩٧ ـ Demombynes, Masalik p. 28.

٩٨ ـ تحفة النظار ـ جـ ٢ ص ١٨٦ ـ ١٦٧.

٩٩ ـ تحفة النظار جـ ٢ ص ١٨١ ـ ١٨٢.

١٠٠ ـ ذكر Dela Ronciere أنه عقب تلك البعثة بقرن من الزمان، أرسل أحد سلاطين مصر أيضًا بعثة لنفس الغرض، وهو كشف منابع النيل، ووعدها بجوائز سنية إذا استطاعت تحقيق تلك الغاية، وطلب منها استحضار غصن من شجر الند كدليل على بلوغها تلك الجهات. لكن وعورة الطريق لم تمكن أعضاء البعثة من التوغل، فيما وراء منطقة الشلالات فلم يواصلوا سيرهم.

١٠١ ـ تاريخ المسلمين للشيخ المكين جرجس بن العميد ص ٢٩٨. وكذلك

La Decouverte de L'Afrique, 11, p. 109.

١٠٢ ـ Wiet, Hist. de 1 Nations Egyptienne t. iv pp. 372 - 375.

١٠٣ ـ النويرى ـ جـ ١ ص ٦٦ .

١٠٤ ـ التبر المسبوك ص ٧٢ .

١٠٥ ـ Demombynes, Masalik, p. 30 (Note 2).

١٠٦ ـ Dela Ronciere, La Decouverte de l''Afrique, t. 11. p. 111.

١٠٧ ـ Ludolph, A New History of Ethiopia pp. 40 - 44.